الذكـرى الخامسـة والسبعـون لاكتشـاف أوغاريت

رئيس التحرير

مقدمـة

يضجّ عالمنا الشرق أوسطي بعطاءات حضاريّة عظيمة تراكمت على مرّ الزمن، لتشكل إرثًا إنسانيًا فريداً، مَدّ العالم بأروع ما أبدع المخلوق العاقل في منطقتنا. انهال المنقّبون على الأماكن الأثرية في مصر، وفلسطين، والأردن، وبلاد ما بين النهرين، وسوريا، ولبنان، يشيلون من أحشاء الأرض ما حفظته من شواهد ماديّة على عِلم الشعوب التي قطنت في تلك الديار، وعلى معرفتها، وصناعتها، وفنّها، وطرق عيشها، على آلهتها، وعباداتها وطقوسها، على هياكلها وبيوتها وهندستها، الخ.

سنة ١٩٢٩ كان الحدث الفريد في شمال غربي سوريا، حيث تمّ اكتشاف موقع رأس شمرا الأثري صدفةً؛ ولم يَطُل الأمر حتى توضّحت أهميّته التاريخيّة، والعلميّة، وغيرها. قد نستطيع أن نتصوّر فرحة علماء الكتب المقدس، خاصة العهد القديم، بعد أن نجح بعض الأخصّائيين في التعرّف إلى أبجديّة أوغاريت، بُعَيدَ اكتشافها، ثم في قراءة بعض الكلمات أولاً، والنصوص بمعظمها لاحقًا، ممّا شكّل دعمًا للجاهدين في حلّ ألغاز في النص البيبلي العبري، ولدراسة التقاليد والعادات والطقوس والعبادات، وإلى العديد من أسماء الأشخاص والأماكن.

١ – اكتشافات أوغاريت

إذا كانت المصادر القديمة المصريّة والكنعانيّة الحثيّة قد عرّفتنا إلى اسم أوغاريت، فإنّ موقعها بالتحديد بقي مجهولاً حتى تاريخ اكتشافها، وظهرت للعيان حضارة راقية بلغت أوجها في القرن الرابع عشر ق. م.، وأنفس ما فيها هيكل مكرّس للإله داجون، أبي بعل، وإلى جانبه مكتبة تحتوي على كمٍّ هامٍ من اللوحات الخزفيّة نُقشت عليها نصوص مختلفة بالخطّ المسماري البابلي، وبلغة كنعانيّة أوغاريتيّة، تشتمل على ملاحم شعريّة، وأساطير، وأدب ديني، ومعاجم، وكتب مدرسيّة، ولوائح ببضائع، وأسماء سفن وتجّار وشركات، ورسائل إداريّة، وتجاريّة، وعقود، ووصفات طبيّة. ترقى هذه الوثائق إلى أيام الملك نِقْمَدّو الثاني، أي القرن الرابع عشر ق. م.، ولكنها بالتأكيد هي أقدم من ذلك. تشير المواد المكتشفة إلى أن المدينة كانت على علاقة تجاريّة وحضاريّة مع بلاد ما بين النهرين، ومصر، وكريت، وقبرص، والعالمَ الإيجيّ، وغيرها.

اقتبس العبرانيّون اللغة الكنعانيّة وحضارتها كمادة أوّليّة لتحرير بعض نصوص العهد القديم، إضافة إلى مواد أخرى عدة؛ لذا، وبما أنّ لغة أوغاريت هي الكنعانيّة، فإنّ هناك قرابة بين الاثنين، ممّا دفع بعض الباحثين في لغة أوغاريت إلى استخدام العبريّة لفهم النصوص الأوغاريتيّة؛ لكن يجب الاحتراس من الذهاب بعيداً في هذا التوجّه، والتمادي في اللجوء إلى العبريّة لحلّ ألغاز الأوغاريتيّة، وإلاّ كان الوقوع في أخطاء مردّها إلى اعتبار بعض المظاهر اللغويّة الأوغاريتيّة عبريّةً، بينما الواقع هو أن الأوغاريتيّة تتضمن عناصر بابليّة وآراميّة، وعبريّة وعربيّة.

٢ – أدب أوغاريت

زوّدت نصوص أوغاريت البحّاثة بمعلومات تاريخيّة ودينيّة وسياسيّة ثمينة عن المنطقة، خاصة عن بلاد كنعان بين القرنين الثامن عشر والخامس عشر ق. م.، تُضاف إلى ما كان متوفراً من بعض الوثائق البابليّة والمصريّة ورسائل تل العمارنة، وكتب العهد القديم، وممّا دوّنه الكتّاب والمؤرخون الاغريق والرومان.

– **قيمة أدب أوغاريت الدينيّة** كبيرة؛ فعندما كان الكثيرون يكررون ما تقوله أسفار العهد القديم بأنّ ديانة الكنعانيين هي إباحيّة ونجسة ومُشركَة، تبيّن لنا، وبفضل اكتشاف نصوص أوغاريت وما ماثلها، أنها، على عكس ذلك، كانت تقوم على مُثُلٍ عليا وعلى عقائدَ راسخة.

– **قيمة أدب أوغاريت** كبيرة أيضًا، إذ يُلقي أضواء ساطعة على **لغة العهد القديم** وعلى بعض **المعتقدات العبرية** في نشأتها، الأمر الذي جذب اهتمام الأخصائيين في الأدبين الأوغاريتي والببلي[1].

قيمة أدب أوغاريت الاجتماعيّة، وما يتفرّع عنه في المجتمع الكنعاني، هامة من حيث فائدة هذا الأدب في ما يتعلّق بالعائلة، والأعراس، والولائم، والمآتم، والأعياد، الخ.

أمّا **قيمة أدب أوغاريت الفنيّة** في ملاحمه وأساطيره، فهي الأهمّ، مع أرجحيّة أن تكون تمثيليات فصليّة، فيها جوق وممثلون ومسرح، وأن تكون فيها أيضًا أعمال سحر ورَقي، تهدف إلى إلحاق الهزيمة بقوى الشر الكامنة في الطبيعة من أجل الحفاظ على الحياة، وتوفير الخير والبقاء في الحياة والسعادة. لذلك، تشكّل ملاحم أوغاريت (إذا جاز التعبير) وأساطيرها مصدراً هامًا للكثير من أبحاثنا الحضاريّة والبيليّة المتنوّعة.

لقد أثار اكتشاف الأدب الأوغاريتي منذ ما يزيد على خمس وسبعين سنة، حماس علماء الآثار، والحضارات الشرق أوسطيّة، والباحثين في نصوص الكتاب المقدس العبريّة، معتبرين أن أجوبة هامة ستتوفر لهم في شأن مسائل حضاريّة متنوّعة كانت ما زالت مُعلّقة أو مبهمة.

٣ – تشابه وفرادة

بدّدت قراءة النصوص الأوغاريتيّة العديد من الأمور الملتبسة، إن على صعيد مفردات عبريّة كانت تشكل عقدة كأداء من حيث غموضها، وإن على صعيد بعض الطقوس والعبادات التي كانت أصولها وجذورها ودوافعها بحاجة أكثر إلى التوضيح، وغير ذلك.

لكن، بالرغم من الآمال الكبيرة التي علّقها علماء الكتاب المقدس على اكتشاف الأدب الأوغاريتي، ومن وجود عدّة أوجه شبه، فإنه من الواجب التمييز بين هذا الأخير وبين الأدب البيبلي؛ فهما ينتميان إلى عالمين متمايزَين، وإلى موقعين جغرافيين مختلفين:

– فأوغاريت مدينة كبيرة تقع في شمال غرب سوريا، اضمحلّت حوالي العام ١٢٠٠ ق. م.، أما أورشليم فتختبئ داخل أراضي جبال يهوذا حيث ترددت مسيرة أحفاد إبراهيم على مدى ألف سنة.

– أوغاريت مدينة تجاريّة هامّة، لها تواصل في هذا المجال في كل اتجاه، أما أورشليم فليست كذلك، باستثناء وجود مَن سيصفهم يسوع بأنهم "تجار الهيكل".

– في أوغاريت وثائق كثيرة وقيّمة، ولكنّها وُجدت مبعثرة في القصور والهياكل والمنازل وغيرها، أما وثائق بني إسرائيل فهي مجموعة في كتاب العهد القديم، الذي يحفظ أخبار الملوك العبرانيين وحولياتهم، ولكن الهدف هو ديني، بينما في أوغاريت فالهدف سياسي، ومدني، واجتماعي، واقتصادي، ودبلوماسي، وفني، وطقسي...

بالتأكيد هناك اختلاف واضح بين الأدب الأوغاريتي وبين النصوص البيبليّة في المضمون وفي الشكل:

– فلقد استغرق تحرير هذه الأخيرة حوالي الألف سنة، وارتبطت في ذلك باختبارات روحيّة وبأحداث تاريخيّة متلاحقة، طبعت هذه الكتابات بمجريات الأمور، إلى أن أضحت قانونًا لحياة شعب الله، إن في التوراة، وإن في الأنبياء أو المزامير والكتب الحكميّة، كما أيضًا مصدر حياة لهذا الشعب ورباطًا وثيقًا بين أفراده.

– بالمقابل، لا يصبو العنصر الماديّ الأوغاريتي إلى أن يكون قانونًا، ولا يصل إلى درجة يصبح معها مصدر حياة لجماعات دينيّة، وكانت نهايته دمار المدينة، وطمس تلك الحضارة، بينما يبدو العنصر المادي البيبلي عضويًا إلى أن يصبح دستور حياة.

– لا تتضمّن نصوص أوغاريت، التي استغرق تدوينها أو تحريرها حوالي القرنين، أي رواية عن الخلق كتلك التي نجدها في مستهل العهد القديم، ولا أقوالاً نبويّة، ولا حوليات بالمعنى الدقيق للكلمة، ولا قوانين كتلك التي في التوراة، بل نجد فيها ميتولوجيات وأساطير، كما أيضًا عقودًا ونصوصًا إداريّة، وهذا ما لا نجده في الكتاب المقدس بشكل عام.

بالرغم من كل ما تقدّم، لن يكون بمقدورنا أن ننكر أنّ أوغاريت

---

(١) أنظر مقالنا، في هذا الإصدار، الذي بعنوان: "بين نصوص أوغاريت والعهد القديم تفاعل وتمايز"، ص ٣٣–٤٣.

شكّلت عونًا ثمينًا للدراسات البيبليّة بما وفّرته من إمكانيّة للمقارنة والتدقيق.

٤ – نصوص أوغاريت مخزون كبير من المعلومات

لا معلومات بيّنة حول اتصالات مباشرة بين مملكة إسرائيل وأوغاريت، ذلك لأن الأولى صارت كيانًا قائمًا بذاته بعد خراب الثانية (سنة ١٢٠٠ ق. م.). بالمقابل، نعرف أن الكتاب المقدس الذي يمدّ جذوره بعيداً في الماضي، ويذهب بعيداً خارج حدود أرض فلسطين، له علاقة غير مباشرة بأوغاريت. فمنطقة "حرّان"، الموطن الأول لإبراهيم أبي الآباء، كانت على علاقة مع أوغاريت. وفي لائحة الشعوب التي يذكرها سفر التكوين، يرد اسما مملكتي صور وصيدون، جارتي إسرائيل، كما أيضًا اسمَا الأموريين والحثّيين المذكورين في نصوص أوغاريت، ومملكة سيّنُو الصغيرة المجاورة التي لم تكن معروفة قبل اكتشافات سنة ١٩٢٩ في أوغاريت.

أضف إلى ذلك ما تزوّدنا به نصوص أوغاريت عن شعوب قديمة كانت تستوطن منطقة الشرق الأوسط، ونعرف شيئًا عنها من خلال حوليات الفراعنة ومسلاّتهم. بالمقابل، لا تفيدنا تقاليد الآباء بشيء محدّد عن هذا الأمر سوى ورود أسماء معيّنة أحيانًا.

كذلك، تفيدنا نصوص أوغاريت في معرفة أفضل لحياة أورشليم وإدارتها لأنّ المعطيات البيبليّة لا تزوّدنا إلا بالقليل في هذا المجال، ويمكننا أن نفسّر ذلك بكون البيبليا ذات مَرَام دينيّة بالدرجة الأولى ولا تعني إلاّ عرضًا بالأمور الأخرى. هكذا، وبفضل وثائق أوغاريت، صار بالإمكان تكوين فكرة أدقّ وأوضح عن سير الأمور الإداريّة في العاصمة العبريّة. وبفضل لوائح أسماء ضبّاط البلاط الملكي في أوغاريت، نستطيع الآن أن نفهم أكثر كيف كانت حاشية سليمان الملك الإداريّة.

هناك أيضًا لوائح بأسماء الحِرف والمِهن، وأسماء كهنة، ورعاة، وضباط، والرتب العسكريّة، ولوائح بالرواتب، وبتوزيع حصص شهريّة، ووضع المؤمن، الشيء الذي يذكرنا بـ"مدن الاحتياط" في الكتاب المقدس، ولوائح بالكروم، والملاّحات، وجداول بقطع الأرض.

أضف إلى ذلك، أن نصوص أوغاريت تكمّل ما لدينا من معلومات عن المسالك الدينيّة والمدنيّة التي أثارتها التدابير التي اتّخذها سليمان الملك في مملكته. ففي أسطورة "كِرِت" الملك الأوغاريتي، نعلم أن هذا الأخير فقد زوجته وعائلته، ثم تزوّج من ابنة ملك "أودُم" (وقد تكون "أَدُوم")، فرزق منها سبعة بنين وابنة واحدة؛ وإذ تمرّد البكر على أبيه، لأنّ هذا الأخير كان ظالمًا ولا يحكم بالعدل، انتقلت البكريّة إلى الابنة. تفيد هذه المعلومات في فهم المواقف التي كانت تواجه داود ثم سليمان وابنَيه في مسألة الوراثة، وفهم سبب دخول وجوه نسائية الساحة السياسيّة ووصولها إلى السلطة، نذكر، على سبيل المثال، "أشِيرَه"، و"عناة"، وأسطورة "أقهات" ابن "دانِل"؛ من خلالها نعرف أن المسائل الدينيّة والإنسانيّة كانت مطروحة في إسرائيل، كما عند جيرانها، الأمر الذي يسهّل علينا فهم معضلات سياسيّة ولاهوتيّة تعرّض لها الكاتب البيبلي عند تحرير نصوصه.

خاتمـــة

بفضل اكتشاف الأدب الأوغاريتي تزايد فهمنا للعالم الأوغاريتي والكنعاني الذي في إطاره نمت الديانة اليهودية. إنّ نصوص أوغاريت هي عونٌ كبير لفهم العهد القديم، ومفرداته، وبُنْيات تفكيره، وخلفيّاته التاريخية والدينية عامة. لكن يجب التعامل مع نصوص أوغاريت بعناية في عملية المقارنة، وأن يأخذ الباحث بعين الاعتبار ما يتعلّق بالتأريخ والمسافة الجغرافية.